

العقاد

هذا الشاعر واحد ثلاثة نشأوا في بيئة أدبية واحدة . وزميلاده هما عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازنى . تدارس هؤلاء الرفاق الأدب معاً . وواظبوا على المطالعة . واتجهت آراؤهم الأديب ونوازعهم الثقافية والفكرية اتجاهاً واحداً .

ولاشك أن أروع ما في حياة العقاد أنه صنع نفسه بنفسه . ذلك أنه لم يظفر في مطلع حياته بقسط كبير من الدراسة المنتظمة . ولكنه بروحه العصامية العظيمة تمكن من الاطلاع على الأديين العربى والإنجليزى إطلاعاً واسعاً حتى قبل أن يلتقى شكرى والمازنى .

ولاريب أن كلاً منهم قد تأثر بصاحبيه في المطالعات الأجنبية وإن اختلفت مواهب كل منهم وتفاوتت قدراتهم الذهنية الخلاقة .

والفضل في نجاح العقاد فيما بعد إنما يرجع إلى همته العالية . ونفسه الطموح المثوبة المتطلعة أبدأ إلى السمو والإبداع في الأدب والفكر والشعر . والحق أن جهاد هذا الشاعر الكبير في سبيل الحصول

على ثقافة حرة واسعة النطاق جهاد مشكور . نحمد له كل من طالع
سيرة حياته . ويضرب به المثل للشباب الطموح الذى يصبو لتحقيق
أسمى الآمال .

وثقافة العقاد مزيج من العربية الصادقة والإنجليزية القوية ،
شأنه فى ذلك شأن صديقيه شكرى والمازنى . ولعل من الإنصاف أن
نقول هنا إنهم كَوْنُوا مدرسة واحدة ، واضحة المعالم ، ظاهرة
الحدود ، جلية الأغراض . ولقد يجد الناقد الأدبى المخلص شيئاً من
الصعوبة فى التمييز بين أصدقاء عاشوا فى بيئة واحدة عيشة ممتزجة
متحدة ، يدرسون معاً ، ويفكرون معاً ، وينظرون إلى الأدب
والفنون نظرة واحدة لا اختلاف عليها . بل لقد تقرأ القصيدة
لشكرى فتظن أنها من نظم العقاد أو من نظم المازنى . وهكذا يكون
شأنك لو طالعت قصيدة من قصائد المازنى أو العقاد ، ولقد كانوا
ينظمون معاً فى الموضوع الواحد بل فى البحر الواحد والقافية الواحدة
قصائد قد يعنى فى معانيها شىء كثير من توارد الخواطر . وكيف يسلم
شعر أصدقاء كهؤلاء الأصدقاء من توارد الخواطر . وهم يفكرون معاً
ويقرءون معاً ، فكأنهم قلب واحد أو ذهن واحد منتقل بين أبدان
ثلاثة !؟ وبمكنتنا أن نعرث على أصدقاء كهؤلاء الأصدقاء فى صدر
القرن التاسع عشر الميلادى فى إنجلترا : أجل ، هنالك كيتس ،

وهنت ، وشيللى وبيرون ، وسواهم كثيرون . والصدقة الأدبية المثينة فيها فائدة أى فائدة ، ولا يستطيع أحد أن يجحد فضلها أبداً . ذكرت أن الثلاثة ، شكرى والمازنى والعقاد ، قد اتفقوا فى المشرب اتفاقاً كبيراً ، وقلت إنه من الصعب التفريق بين خصائص كل منهم ومواهبه ؛ ولكن الناقد الأدبى المخلص فى مكتبته التفريق بين هاتيك الخصائص الفردية التى يختلف فيها الواحد عن الآخر .

ظهر لنا من دراسة شكرى أنه شاعر متطير منشأم ينظر إلى الحياة نظرة سوداء ، ويرمى بالدنيا وبالناس ، ويسخط على الوجود والعيش ، ويحب الموت ويود أن تنتهى حياته ويخلص من قيد البقاء الكريه . أما العقاد فساخت كذلك ، برم بالحياة ، ولكن سخطه وبرمه لا يذهبان برشاده وهدها جميعاً ، وإنما هو يعلم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وهو يرى أن الصبر على مكاره العيش نوع من الفلسفة المحببة . وله فى ذلك كله فلسفة هادئة برغم ثورتها الكبيرة الظاهرة . أما المازنى فلنا بسبيل الكلام عن شاعريته ، مادام قد برئ هو من هذه الشاعرية وأعلن أنه ليس بشاعر ، وإن كان هو فى الحقيقة شاعراً بالرغم منه !

ولعل من أظهر الأدلة وأوضحها على صدق ما قلناه من أن فلسفة العقاد هادئة راضية قانعة بالعيش على مضض - على تقيض

فلسفة شكرى البرمة الساخطة - قصيدة العقاد إلى عبد الرحمن
شكرى وهو بالإسكندرية ، والتي جعل عنوانها (إلى جار بحر
الروم) ، فهو في هذه القصيدة يحض شكرى على فك أغلال
الزمان ، في تفاؤل عجيب ، ويشكو إليه زمنه شكوى كلها إباء وعزة
ورضا عن العيش ، وقنوع بما في الحياة من جهال ترجيه الطبيعة
الحسنة . اسمعه يقول :

يا جار بحر الروم ! مالك صامتاً ؟
هلاً إقتديت بموجه المتجدد ؟
غضبان من لوم الحياة ، وأنها
أمة ولكن مالها من سيد
فليسيليك في جوارك خضرم
غضبان يقذف باللغام المزيد
إني ألب بموطن لو أنه
قفر لأطربني صغير القدقد
تمضى الشهور وفي الجوانح لوعة
تمشى على كبدى كحز المبرد
أشكو الزمان إلى القريض وتارة
أشكو القريض إلى الزمان المعتدى

فاكتب على هذا الزمان ذنوبه
إنا نؤجله الحساب إلى الغد
واضحك فإن قالوا تضاحك قانط
فاضرب لهم مثل الغمام المرعد
تالله لو علموا لكان مكاننا
فيهم أعز ، وكيف علم المقتدى ؟

في هذه القطعة على صغرها تتمثل كل فلسفة العقاد ، وتكن
نظرة الشاملة إلى الحياة ، تلك النظرة الثائرة الهادئة ، الطامعة
القانعة ، التي ترضى بما قسم لها اليوم «موجلة حساب الزمان المذنب
إلى الغد» !

وهو يفضن بالحياة ولا يعدل بها شيئاً ، ويبقى عليها إبقاء كبيراً ،
على نقيض شكرى الذى يبكى ويستسهل الموت فى سبيل إرضاء
معشوقته ، أو يحاول التخلص من حياته لخيانة عشيقته أولعقوق
صديق ! فاسمع العقاد يقول فى قصيدته «الخيبة» مخاطباً الدهر :

إننا قرينا الرزايا من مدامنا
وقد نصبن ، فماذا تشهى بدلا ؟

وقوله :

إذا اطمأن إلى البأس صاحبها

فأهون الحال ما تدعونه فشلا

وهكذا يرضى بالفضل ويقنع به ، ولكنه لا يفكر في الموت كما يفعل شكري في مثل حالته .

وللعقاد قصائد وجدانية تلاحظ فيها سخطة وتبرمه هادئين كما قدمت ، ومن هذه القصائد قصيدة «يا كتي» إذ يقول :

يا كتي ! ألبت جلدي الضنى

لم بغنى عنى جلدك المذهب !

كم ليلة سوداء قضيتها

سهران حتى أدير الكوكب

كأننى ألمح تحت الدجى

جياجم الموتى بدت تخطب !

ويختتم هذه القطعة الوجدانية المشتعلة بقوله :

لا رحم الرحمن فيمن مضى

من علم العالم أن يكتبوا !

وله قصيدة اسمها «كأس على ذكرى» فيها الكثير من الأبيات
الوجدانية البارعة ، ومنها يقول :

يا نديم الصبوات ! أقبل الليل . فهات !
واقتل الهم بكأس سميت كأس الحياة
خرب القلب فعمر ه بخير الساكنات
خمرة تملأ قلبي بتقديم الذكريات
وشجى النغمات وحنى الثمرات

ويبدو لي أن العقاد معجب بهذه القصيدة التي صاغها بسهولة
بنائها وجميل موسيقاها . ولذلك عاد فأحياها في (هدية الكروان)
خيراً ضمن قصيدته «كلماتي» وهي من نفس البحر والقافية .
وكان العقاد موفقاً توفيقاً كبيراً في قصيدته من حيث البناء والمعنى .

• • •

ويلوح لي أن العقاد لم ينل نصيبه من متع الحب العذرى
الصادق ولعل نشأته الجادة وحياته المكافحة هما السبب في إهمال
هذا الحب . ولذلك لا نظفر له بشعر عاطفي يتعادل مع شعره
الوجداني الفلسفي أو الوصفي إلا في دواوينه الأولى أيام كان شاباً
مشتعلاً الوجدان . وليس أدل على ذلك من قصيدة «داوني» التي

تلمح فيها عاطفة طيبة ولهفة وحنيناً لا غبار عليهما . اسمعه يقول :

داوئى يا طبيب واعرف داوئى
لست أبغى الشفاء كل الشفاء

داوئى واقتصد ، فنى البرء لوكا
ن سقامى ، وفى السقام دوائى

إن دأى كالمهم أنشب فى القدر
ب وكالمهم قر فى الأحشاء

لبه موجع ، وأوجع منه
نزعه ، والهلاك فى الإبطاء

داوئى أيها الطبيب ! أما داوئى
ست مثلى من مثل هذا البلاء؟

واشف قلبي فلت أول شاك
فوق هذا الثرى وتحت السماء

إلى آخر هذه القصيدة العاطفية الجميلة . والغريب أن بعض
معاني هذه القصيدة شائع في الشعر العربي القديم ومع ذلك فقد
عرف العقاد كيف يصوغها ثانية في ثوب جميل من اللفظ الرصين .

وله قصيدة تحت عنوان «نفثة» اعترف أنها من أجود شعر
الوجدان والحب ، يقول فيها :

غربوا قلبي وهم وطن ومضوا عني وما ظعنوا
واستقلوا حيث لا رسل تبلغ المسعى ولا ستن
أين منا دار وصلتهم ؟ قربت لو أنها مدن
دارهم لا قوضت أبدًا عزة في ظلها سكنوا
أى فردوس علمت به لم يحطه الموت والإحن ؟
هذه الجنات نبصرها هل لنا في بعضها وطن ؟

ثم يخرج شيئاً فشيئاً عن الموضوع الغزلي وينحى على الزمن قائلاً :

زمني جوزيت يا زمني أى بأس فيك لا بين
ما الذى أبقاه لى زمني غال صفوى كله الزمن
ليس لى من مبصر أمل كل شىء فيه لى شجن
ما الأمانى ؟ إنها خدع ما الغوانى ؟ إنها دمن
ما الصداقات التى زعموا ؟ إذنها البغضاء تؤتمن
ما العلا ؟ ما المجد فى أمم مجدها بل ربها وثن ؟
ما السجايا الغر ؟ وا أسفًا إنها حلم ولا وسن ا
وهكذا تندفق ثورة الشاعر على الكون والزمان والحياة

وما وسعت من كائنات . وفي قصيدته «مولد الحب» و«موت
الحب» صورة قلقه للحب في ساعة ابتدائه وفي ساعة انتهائه وفنائه ،
عارضاً شجى قلبه ولوعة وجدانه عرضاً لا بأس به ، وكذلك شأنه
في قصيدة «الصنم الهاوى» .

ولعل أروع قصائد الغزل التي نظمها العقاد هي قصيدته «غزل
فلسفي» التي ظهرت في (وحي الأربعين) وفيها يبدو الشاعر المحب في
مسوح الفيلسوف . ولقد وفق العقاد إلى حد بعيد في نظم هذه
القصيدة بحيث جاءت حاوية لصور كثيرة من صور الجمال الشعري .
ولا يجد الناقد الأدبي المخلص في هذه القصيدة فلسفة حقة ولكنه يجد
جمالاً شعرياً ، فهذا الغزل إلى الشعر الصوفي المتجرد أقرب منه إلى
الشعر الفلسفي . أسمعه يقول :

فيك من شمس الضحى العين التي
ترسل الملح مضيئاً في الظلام
فيك من بدر الدجى أحلامه
حين يسرى نائماً بين نيام
فيك من كل ربيع طلعة
ثبتت النظرة عاماً بعد عام

والشئاء الجهم لا يعدوك من
عهده العاصف برق وغمام

إلى أن يقول :

فيك منى ومن الناس ومن
كل موجود وموعود تؤام

كيف بي أعدل إن أغنيتني
أنت حتى عن شرابي والطعام

إن نفوى اليوم عن دنياهمو
وأباحوا لى عن الزاد المرام

ثم قالوا ماتشا منها فخذ
قلت هذا ، وعلى الدنيا السلام !

قلت : هذا ، وتقدمت إلى
هوة الغيب وفى الثغر ابتسام !

كيف بي أعدل إن أغنيتني
أنت حتى عن شرابي والطعام

لا يرى القارى فى هذه القصيدة فلسفة وإنما يرى تفكيراً قوياً ،
ومعاني بارعة ، ولقد وفق العقاد فى نظمها توفيقاً كبيراً .

وله قصيدة «حسرة مقلقة» فيها حنين وفيها شهوة غالبية . اسمه

يقول :

يا له من فم يا لها من شفه
يا لشهد بها كدت أن أرففه
يا لزهر بها كدت أن أقطفه
حلوة وبمها ! غضة مرهقه
حسرتى بعدها حسرة متلفه !

ولكنى أذهب بك إلى قصيدة غزلية رزينة هادئة للعقاد وقد اتخذ له سمة الشعر الرمزي القصصى وجعل عنوانها «سعادة في ققم» وأرى أن أنقل هذه القصيدة كلها لما فيها من جلال فنى وإحكام نظمى :

هنا ققم سايح فى الدم أسائل عنه ولم أعلم
جهلت خباياه حتى أتى عريف الطلاسم بالمعجم
ففيه كما قيل مسجونة سعادة بعض بنى آدم
تجن جنوناً بنور الضحى وتذبل فى جيبها المظلم
وقد زعموا أن إطلاقها رهين بهمة ذاك الفم
بسر على شفتى فائن يباح إلى شفتى مغرم
فهل أنت مطلقها منعماً فديتك . أم لست بالنعيم ؟

وما أنت بالمشتهى قبله ولا بالحريص على مغرم
ولكنما أنا أبكى أسمى لتلك الشهيدة في القمم !

وأرى أن العاطفة في هذه القطعة قد شابهت شىء من التفكير
اللذيد ولعل ذلك جاء من تقدم السن به ونضج نظرتة الفنية
والعاطفية ولكنك تعثر على العاطفة الخالصة في «الخان والمسجد»
و«النعم المفقود جحيم موجود» وفي أمثالهما من شعره .

* * *

وجه العقاد عنايته نحو الشعر القصصى والمثولوجى فكتب فيه
بعض قصائد قيمة ، منها «غادة أثينا» و«أكاروس» . وهو فى الأولى
يتناول الناحية العاطفية المثالية الموهومة المترجة بالتاريخ الصحيح ،
أما فى الثانية فهو يعتمد على المثولوجيا الإغريقية فى بروى لنا قصة
وردت فيها . والواقع أن العقاد فى هاتين القصيدتين لا يعجبك بقدر
ما أعجبك فى قصائد الوجدان والعاطفة والتفكير ، ولعل ذلك
راجع إلى اصطناعه اللفظ العظيم الدوى أو الغريب الاستعمال فى
بعض الأحيان ، غير متبته إلى جمال الألفاظ السليمة السهلة
والفصيحة المشرقة خصوصاً فى الرواية والقصة .

* * *

يجئ بعد ذلك باب هام من أبواب شاعرية العقاد يكاد يتفرد به دون سواه ، أو قل في معنى آخر يكاد يكون المبرز فيه بين جميع من تعرضوا له بالنظم : ذلك هو باب «الشياطين» . والحق أن نفس العقاد المأزومة في شرح الشباب كان لها أن تنفس عن همها وتخلص من بعض همومها ، وهى نفس مثقفة واسعة أفق التفكير ، كثيرة الحساسية ، فلا أقل من كتابة آلامها في القريض . وهكذا عرف العقاد كيف يتخلص من بعض خواطره المؤرقة في قصيدته «ترجمة شيطان» ، وما أحسبها سوى ترجمة إنسان من الأناسى الذين يعيشون بين ظهرانينا .

وفي هذه القصيدة أو القصة كثير من الجرأة ، بيد أن فيها الكثير من الصدق كذلك ، فهذا الشيطان الذى ترجم له العقاد هو كل واحد من الناس ! فمن الذى أوقفه الطمع عند حد ؟ ومن الذى عرف قدر نفسه وفهم أنه مخلوق ضعيف يتصرف فيه خالق كامل مبدع ؟ لو كان فينا من يفهم ذلك ويتدبره حق التدبر إذن لما رأينا هذه الجرأة في عصيان الله ، والخروج على أوامره وأحكامه ولما اتبعنا طريق الشر :

يد أن الشر ما زال أريباً
وسبيل الغنى محمود الجناب

لن تراه حيث تلقاه غريباً
أبد الدهر ولا تزر الصحاب

وهذا حق جميعه برغم شاعته وبشاعته . ويعجب القارئ من
جرأة التعبير في قوله :

أيها المولى ! ولا تغضب على
عبدك العاصي إذا لم ترضه
عبد سوء رفض الخلد فلا
تبل بالجود قصارى رفضه !
لا تعاجلنى بلوم ! إننى
قائم عنك بلومى وانتقادى
أنا من ينصف من يقرفى
ونجى الذم منى لا يصادى
كم عهدنا عاهلا فى ملكه
يحكم الناس بما لا يفقهون
يوق السائل عن مسلكه
ويبيع الأمن من لا يسألون

ويجرى فى هذا الكلام عصيان صريح ، ولكنه أثر للتشكك

الذى يدهم النفس المكروبة ويطنى على الروح المحروبة ، ولها العذر .
وهذه القصة من أحسن ما نظم العقاد إطلاقاً .

وللعقاد بعد ذلك قصائد أخرى فى الشياطين منها «سباق
الشياطين» و«عيد ميلاد فى الجحيم» و«إبليس يتحرر» ، وهو فى
عيد ميلاد فى الجحيم شاعر متهم واقف على أسرار الدنيا كلها .
اسمعه يقول :

هذا الجحيم أحب لى من عالم
ما كان لى إلا رجاء خابا
الشر ثمة كان شرًّا كاسمه
والخير كان كما علمت سرايا

ويصف فى «إبليس يتحرر» الدنيا وقد خلعت من الخير والناس
وقد تبادوا فى الضلال والآثام حتى أصبح كل منهم إبليساً :

واستفنت الأرض والسماء معاً
عن الشياطين فانظروا جزعا
ما حاجة الأرض للأبالس فى
عهد نضا الخوف عنه والجشعا ؟ !

ثم يقول على لسان إبليس :
أنى زمان أموت فيه أنا
أبليس ياساً ، وفى يدي صنعا
ودعت ملك الدنيا وودعنى
ملك إذا هم قلما رجعا
هاتوا لى الخير جرعة فإذا
ضعفت عنه شرته جرعا
سأسبق الموت حين يتبعنى
فإنه لاحق إذا تبعنا !

• • •

والجانب الوطنى عند العقاد جانب جد يسير بالنسبة لجوانبه الأخرى ، ولست أدرى كيف كان ذلك والعقاد رجل متصل بالحركة الوطنية ! ولكن يقال إن له قصائد وطنية لم تنشر لظروف سياسية خاصة ، ولكننا لانستطيع أن نحكم على شىء لم نره . هذا والقصائد التى نظمها العقاد فى الوطنية قصائد رصينة ملتهبة العاطفة تشرف الشعر العربى الحديث .

• • •

والرأى أن العقاد - شاعر واسع الأغراض ، بعيد الخيال ، رائع

الأفكار . غَوَاصَ في طلب المعاني . وهو لاشكَّ يروعك ويستثير
إعجابك .

والحق أن الشعر العربي قد كسب كسباً عظيماً بشعر شكري
والعقاد والمازني . وإذا كان شكري قد اختصر الطريق وأهمل نشر
آثاره فإن العقاد ما يزال ينفع المتأدبين في العالم العربي بدواوينه
التجديدية القيمة . وقد أصبح بإنتاجه المثل الباقي لتلك المدرسة
الثلاثية في وقتنا الحاضر .